

محرم الحرام

مقبور من طين

مكتبة الآداب ومطبعة البازيل
الطبعة الأولى
٦

الطبعة الأولى

سنة ١٩٦٩

١

إن من يتحدث إليك في هذه القراطيس التي بين يديك ،
ليس من البشر ... إله إله ... إله عظيم الحول والطول ،
أقاموا باسمه معبداً ضئلاً ، ونصبوا فيه تمثالا له فخماً ،
وعكفوا عليه ، يعبدونه ويتزلفون إليه .
إننى إله ... إله فى أعين الناس ، أما أنا فى حقيقة
نفسى ، فواحد من البشر ... إنسان مثلك ، لا امتياز له عليك .
لقد رأيت الدين تعبث به الخرافات والأوهام ، فأردت
هداية هذا النفر المضلل ، وتبصيره بجوهر الدين : الصدق
والإخلاص ، والمحبة والسلام ... فتأروا بى ، وكادوا لى ،
واتتمروا ليقتلوني ... بيد أنهم فى النهاية ألغوني ...

صار لي معبد مهيب ، تحج إليه أفواج المؤمنين ، وصنم
طويل عريض ، يركع أمامه جموع الاتباع والمرئدين ...
كذلك أرادوا ، وليس لي فيما أرادوه يد أو صنيع ...
دعني أقص عليك نبئ ، ثم احكم بما شئت لي أو على .
ولتكن في حكمك أنا أكرم وسماح ، فالإله الذي تقاضيه
له نزواته وشهواته ، مهما يتبوأ عرش الأقداس .
أنا «بتاح» من مدينة «أنب - حز» الخالقة ، ذات
الأبواب السبعة ، والأسوار الناصعة البيضاء ، سيدة المدائن
في العالم المنظور .
كان أبي من أفذاذ الدولة ، أمينا على خزان «فرعون»
الأكبر ، مهيمنا على ثروة البلاد .
فلما انتهت رحلته في عالم المنظور ، من دنياك هذه ،

وانتقل إلى العالم غـير المنظور ، عالم الزرقة الصافية ،
عرض « فرعون » على أن أقوم مقام أبي ، وأتابع سيرته ،
وكنت في قمة الرجولة ، أعني في تمام الأربعين ، فلم أستطع
أن أستجيب له ، واعتذرت شاكرًا لإياه على ما حبانى به
من ثقة وتقدير ، وصارحته بأنى لست الرجل الذى يطمئن
هو إلى التعويل عليه فى هذا المهم الجسيم .

نشأت فتى أميل إلى المثالية ، لا طاقة لى باحتمال الواقع
السكرى الذى يحيط بى ، ذلك الواقع القاسم على زيف
وخدعة ، وعلى تنكر للحقائق الباقية .

وكان بما أيقظ ضميرى ، وأرهف وجدانى ، ما شهدته
من مناظر أليمة حولى ، فى أثناء رحلاتى مع أبى ، بنحوب
الأقاليم لجمع الإثباتات وتصخير العبيد .

و كنت أعجب لمؤلاء الكهنة ، سدنة الدين ، من نصبوا
أنفسهم للدفاع عن حقوق المظلومين ، وتذكير الناس
بالخصائص الدينية من سماحة وعدالة وبر ... لقد استحالوا
سادة غطاريف ، يضللون العقول ، ويموهون الحقائق ،
وينشرون بين الناس عقيدة الخضوع والاستسلام ...

وكانت لى زوجة محبة وفية ، عشت معها أعواماً ، ثم
رحلت إلى العالم غير المنظور ، فأقسمت أن أكون حفيماً
بذكرها ما حييت ، وأقبلت على دراساتي وتأملاتي أولها
أطيب وقتى ، وألزمت نفسي أن أتضى طوال الساعات فى
مناجيات وصلوات ...

لقد انكببت على قراطيس الحكمة أعب منها عباً ،
وأضربت عن شواغل الحياة وملاهيها ، فلم أهد القى

« للراحة ، بالا ، ولم أجعل لفتتها إلى قلبي سيلا . أما ضرورات العيش ، فاقتصرت منها على ما يقيم الأود ، ويستر البدن ، ويبقى من وطأة البرد ووقدة الحر ...

مالى ولرغبات الجسد ؟ ... إنى أعمل على السمو بنفسى فوق الغرائز والنزعات ... وألقيتني على مر الأيام قد تحررت من عبودية المطالب الدنيوية ، إلى مدى بعيد ، وأحسست أنى قد أصبحت سيد نفسى ، يسدى زمامها ، أوجهها نحو المثل العليا .

لقد طهرت كيانى ، واستطعت فى ضوء هذه الطهارة أن أرى الأمور على حقيقتها ، ببصيرة نيرة ، لا كما يراها الآخرون الخاضعون لمشاعر منحرفة .

كم اقتضتني هذه الدرجة التى نلتها من الطهارة أن أمارس

رياضة عنيفة موصولة . وكم أحسست الراحة حين بلغت
ذلك الشأو البعيد ، وتذوقت حينئذ معنى الزعامة الدينية
الحقة ، والسيادة الروحية العظمى .

بهذا كنت صاحب رسالة يلزمنى أدائها لمعشرى ...
وشرعت أثبت بين أهل الرأى ما استبان لى من سرائر
الطبيعة وحقائق الوجود ، وما ينبغى أن تقوم عليه علائق
الناس بينهم وبين أنفسهم ، وبينهم وبين الإله الحق ،
فور الأزل ...

ونشبت بينى وبين أهل الرأى مجادلات حامية الوطيس ،
انتهت بأن أثاروا حولى ضجة عارمة ، قوامها الأثرة
والحق ، ورموني بالخروج على الناموس ، وبالمروق عن
موروث العقائد والتقاليد ...

وناصبني « بهاتور » رئيس السكينة العداء ، وكان جباراً
طاغية ، يتخذ من سلطانه الديني مطية لمآربه ، ويلتمس
به إرواء جشعه ...

والتف حولي شيعة أئماء ، ما لبثوا أن نموا وتكاثروا ،
وتميز من بينهم شباب متوقد الذهن ، قسوى العزم ، فيه
تطالع وطماح ، يسمى « سنكرع » ...

وكان « بهاتور » ١١ بالمرصاد ، يرقب حركاتنا وسكناتنا ،
ويتعقبنا في كل مكان ، محاولاً أن يشد شملنا ، ويقضي
على ديننا ، ليخلو له الجو ، ويهيئ له السلطان ...

وفي أمسية حالكة الظلمة ، وبينما كنا في مخبئنا
مجمعين للتشاور والصلاة ، فجأتنا جموع كثيفة من جنود
« بهاتور » ، واحتدمت على الفور بيننا وبينهم معركة شعواء ،

ما أصرع أن استحالت إلى مذبحه نكراء ...
وهبات أشهد الأحداث الدائرة حياى فى خيل وذهول ،
وحارلت وقف القتال فأخفقت ... فما كانت نفسى تسوغ
لى أن أشهد قتل الإنسان لأخيه الإنسان ، ولا أن أغس
يدى فى دم إخوان من بنى البشر ...
وطار صوابى لمراى الدماء وهى تراق كالأنهار ،
والأشلاء وهى تتطاير فى الهواء ، وأصابتنى لولة من هول
الفاجمة ، وألفيتنى أهيم على وجهى ، لا أعلم لى
وجهة سير ...
كنت قد فقدت إحساسى بنفسى ، وإدراكى لما حولى ...
... ولما تاب إلى رشدى ، واستجمعت ذاكرتى ،
تبين لى أنى قطعت شوطا بعيداً من البلدة ، وأنى أضرب

في الصحراء ناحية الغرب ، بعد أن عبرت النهر العظيم ...
حدث ذلك كله دون وعي مني ...

ووجدتني عن كذب من مغارة ، فقصدت إليها أحتجى
بها .. وطفقت جاهداً أستوضح ما مرّ بي ...

وانسرح بي الخاطر يهيم متخبطاً في آفاق الظنون
والاحتمالات والأوهام : أنجنا من أتباعنا أحد ؟ ... أتجح
« بهاتور » في القضاء علينا قضاء مبرماً ؟ ... لا ، ان يكون
ذلك له . إن الإله الحق نور الأزل لأرحم وأبر من أن
يطغى تلك الشعلة الوهاجة التي ألهمني إياها ... ان يندثر
ديننا ما دام في بدني عرق ينبض ...

كانت إرادة الإله الأعظم أن أنجو بدني ، وأن تتصل
حياتي ، لأهل الأمانة ، وأبلغها كاملة إلى البشر . لقد

أدركت الآن لم كتبت لى النجاة ، فسلست من هول
المذبحة ! ...

وتمنيت أن تكون النجاة قد كتبت كذلك لصديق
الصنى وحوارىّ الأمين ، سنكرع ، عسى أن يحتفظ بما
تركته من تعاليم ، وأن يحى العقيدة الجديدة من أن
تندثر ...

* * *

ماذا أنا صانع الآن ؟ ...
أمن الحصافة والحكمة أن أعود إلى « أنب — حز » ؟ ...
لا ، لا عودة لى على الفور ! ...
ليظفرون بى « بهاتور » ، لا محالة إن عدت ، وليقضين
على شر قضاء ، وفى ذلك القضاء على الدين الجديد ...

الحيلة أن أستخفي عن العيون بهض وقت ، أرقب
الأحداث ، وأتابع ما تتمخض عنه الأيام ...
ولعلني مستطيع ، إذ نجوت يدي ، أن أستجمع
لمودة أواصل فيها جهادي ، ما بقي بين جنبي.
ذماء الحياة ! ...

انحدرت في مسيرى صوب الغرب ، متجنباً المناطق
العامة ، ولم تكن لي وجهة سير ، بل كانت رغبتي الأولى
الابتعاد عن مواطن الخطر ، والاستخفاء في جانب مأمون
ردحا من الدهر ، حتى إذا حانت الفرصة رجعت أعاد النضال .
كنت وقتئذ في الخمسين من عمري ، وبين جنبي همّة ،
وفي العمر بقية لبلوغ الأمل المنشود ...

وفي جوف الصحراء النائية ، عثرت اتفاقاً على ناسك
متعبد ، أبيض اللحية ، فوق الثمانين ، فذر نفسه للعبادة
الخالصة ، يدعى « كاي » ، ممكنه مزاره ، لا يعايشه فيها
إلا حفيده ابنته ، وهى كل ما بقى له من أهله وعشيرته :

طفلة فطيم ، اسمها « نفرت » ...

وكان هذا الشيخ الناسك قد اعتصم في مغارته إثر محنة
شديدة حاقت به في دنيا البشر ، فحمل تلك الحفيدة معه ،
ولما تكن قد جاوزت سن الرضاعة ، فأولاهها من رعايته
وتعهد ما توليه أم رموم ...

عاش هذا الجد مع صبيته على هامش الحياة ، يتأمل في
تعمق ، واستطاع أن يهتدى إلى حقائق من جوهر الدين ،
وأسرار الكون ، فأنكر عبادة الأصنام ، وجنح إلى عبادة
الإله الحق نور الأزل ، يستلهم منه الرشده ، ويضرع إليه
أن يرفع عن الأرض ظلم الإنسان لأخيه الإنسان

ما إن لقيت هذا الناسك المعتزل ، ودار بيننا الحديث
في كنهه الأشياء ، حتى توافق آراؤنا ، واتحدت مرامينا ،

ومرعان ما وثقت بيني وبينه ألفسة ومحبة ، فخططت رحالي
عنده ، وأزمنت المقام لديه ...

كانت البقعة التي يسكنها بعيدة عن العمران ، وسط
رمال الصحراء ، لذا أنها لم تكن موحشة كل الوحشة ،
فقد كان فيها نبع صغير ينبثق من بين الصخور ، يفيض
بمائه أحيانا ، وجوله نخيلات متناثرة ، وكانت منطقة النبع
صالحة لزراعة الشعير ...

اتخذ الشيخ « كاي » مقامه في المغارة ، على مقربة من
النبع ، وجعل من ذلك المكان القصى منسكا لطيفا صالحا
لحياته هو وصديقه الوسيمة ...

وقد أطلقنا على تلك البقعة اسم « الواحة الخضراء » ،
وطاب لي العيش فيها ، أمارس مع القديس « كاي » شعائر

التعب ، وأطارحه في الحين بعد الحين الحديث في جوهر
الحقيقة ، محاولين أن نخط للبشر عالماً أفضل من عالمه المملوء
بالشرور والآكدار ، عالماً تحوطه السعادة والأمن والسلام .
وفي الأماشي المقمرة كنّا نجلس بباب الكهف ، يطبق
علينا الصمت طوراً ، ونتناقل المسامرات الفلسفية أطواراً ،
والهبة في حضن جدها الأكبر ، تستمع إلى الحديث ،
بادئ بدء ، ثم يستبد بها النعاس ، والجد يلفها بذراعيه
في رفق وحنان ...

وكنّت أخص الصغيرة ببعض وقى ، ألعابها وأعابها ،
نتقادف بكرات أصطنعها من الأعشاب وسعف النخل ،
أو نتجاري في لعبة الاستخفاء ، فتتوالب أمامي في نشطة
الظبي ، وتتصايح تصايح العصفور ، ثم تندفع على صدرى
مبهورة الأنفاس ، موردة الخدين . وطالما سويت لها دمي

في نماذج شتى من بشر وطير وسير ، ثم اخترع لهذه
الدمى قصصا وسيرا وأفاكيه ، أروها لها في تبسط ، فتصني
لى الصبية في بشر وتشوف ... وهكذا أنست بى ، وركنت
إلى ، واتخذت منى أبا رحيما ، وعشيرا ودودا .

وتواردت أعسوام ، وثقلت الشيخوخة على الناسك
« كاي » .. أما الصبية « نفرت » فقد شب شبابها ، فازدهرت
ونضجت ، كزهرة الصحراء ، نقيية طاهرة ، فيها صدق
وإخلاص ووفاء .

وكثيراً ما كنت أرقبها ، وأنا مغمور بموجة من سعادة
فياضة ، ثم لا ألبث أن أستشعر الإشفاق عليها ... يا للقدر
الذى تركها تحيا فى ذلك المنفى المسحيق ، منقطعة عن الدنيا ،
وهى الوسيمة التى لم تخلق إلا لى تستمتع بشبابها ونضارتها ،
وبمباسج الحياه حوالىها . بيد أنى أسارع فأنى باللائمة على

نفسى ، لسوء تفكيرى : أية حياة أخرى أنشدها لها فى
دنيا الشرور والآكدار ؟ أليس خيرا لها أن تغدو حوارية
لهذا الشيخ المبارك ، ترتوى من حكمته ، وتقبس من نور
إيمانه ، وتنمو فى الرحاب الفساح ، تصل روحها بروح
الحق السرمدي ؟

وكانت قوافل هيئة للتجارة تعبر بنا فى فترات متباعدة ،
فتمكث بيننا مهلة استجمام ، وتستقى من النبع الصغير ،
وتوافينا بقليل من الزاد ، التماسا لبركة الشيخ « كاي » ،
وثقة بأن نفحة رضاه خالقة أن تكفل نجاح السعى
وأمن الطريق !

وكنا نتناقط من هذه القوافل العابرة نثارا من أنباء
الدنيا البعيدة التى تركناها وراءنا ، فعلت أن ديننا جديدا
شرع يبسط نفوذه ، وأخذ الناس يدينون به ، وأن امرأ

يدعى « سنكرع » ، قد غدا كاهن هذا الدين ، يبشر به ،
ويدعو إليه ...

أحقاً ؟ ... أهذا هو « سنكرع » رفيق وحواريّ الذى
خلفته يوم فارقت قومي ، وأنا فى نظرهم هالك أو فى
حكم الهالكين ؟

وتعاقبت فصول ، وعلمت أن الدين الجديد يزداد
انتشاراً ، وكنت قد أمضيت في صحبة القديس « كاي »
نحو خمسة عشر فيضانا ... ومرة أنبأتني إحدى القوافل
أن « نيناو » الأمير الجديد قد اعتنق دين « بتاح » ، وأن
« سنكرع » قد غدا السكاهن الأكبر في ربوع البلاد ...
وهرعت أبحث عن « كاي » لأزف إليه البشرى ،
وأقول له : لقد حان أن نخرج من عزلتنا ، ونعود إلى
مجتمع الأحياء ، نواصل الكفاح في سبيل خلاص البشرية
من الجمالة والظلم والعدوان ...
وما إن بلغت المغارة ، حتى ألفت « نفرت » جالسة
متربعة على الكشيب الأصفر ، تحت وهج الشمس ، بعيداً

هن خلال النخيل ، وقد عقدت يديها بصدورها ، وحلت
غداثر شعرها ، فانتفش على رأسها ، وتهدل على كتفها ...
كانت صامته يبروها ذبول ، واستبان لي أنها كست نحرها
بزرقه قاتمة ، فقلت على الفور :

ما بك يا « نفرت » ؟ ...

قالت ، وهي ترمي بصرها في الأفق البعيد :

لقد رحل « كاي » إلى برزخ الأرواح ، حيث يبدأ
رحلته في عالم الأضواء الزرق ...

فركمت من فوري ، أطلب الروح المتحررة طمأنينة
الخلود في العالم السرمدي ...

وشغلنا أياما وليالي ، أنا و « نفرت » ، بتحنيط
الجثة ، ثم قمنا ببناء مدفن من حصياء الصحراء وأحجارها ،
حيث تتراعى ظلال النخيلات ، وأقفلنا على « كاي » العظيم

باب المقبرة ، كي يبقى في هدوء حتى يوم الخلاص ...
وواصلت حياتي مع « نفرت » وحيدتين ... وأتتفأ أنها
كانت حياة قلقة حائرة ، لم تخل من نوبات اضطراب نفسي ...
واشتد بي الحنين إلى الرحيل ... وطفقت أتحين فرصة
العودة إلى « أنب — حز » وطني الأول ... لن أتذكر مرور
قافلة ، فإن القوافل مجهولة المواعيد ، وربما افتقدتها
الشهور الطوال ...

ويوما عدت إلى « الواحة الخضراء » بعد جولة مفضية
في مطارح الصحراء ، وقد تلهبت عاطفتي ، وتناوحت
الآفكار في رأسي ، فألفيت « نفرت » في ظل النخيلات
جالسة تطحن الشعير ، وقد مشطت شعرها ، وتضوع منها
شذى طيب ، وبانت حول رأسها عصابة بيضاء ناصعة ،
على حين كانت عيناها النجلوان المسحولتان بالزرقة ترميان

بنظراتهما الحاملة في الأفق العريض ... أما وجهها فقد
اصطبغ بحمرة أشبه بحمرة الآجر المحرق القريب العهد
بالخروج من النار ...

كانت تطحن الشعير في هواة ورفق ، يداها تدوران
كأنما تتلحيان ، وجلستها مترامية ، ورأسها مسند إلى
إحدى النخيلات ...

ووجدتني أقف لأتملي هذه الصورة الرائعة ... وكأنما
هي قبسة من النور الأزلي ... ولبثت في وقفتي أعب من
ذلك السحر العلوي ...

وأحسنت بي ، ولا أدري كيف ، فإني حرمت على
ألا تصدر مني حركة أو نامة ، وأدارت بصرها إليّ ،
فأشرق وجهها ، وتألقت في عينيها هالة الكحل الأزرق اللامع ...
واندفعت نحبي تقول :

لقد رأيت الساعة رؤيا عجيبه ! ...

— آية رؤيا ؟ ...

— رؤيا منام ...

— ولكنك يا بنية كنت يقظى مفتوحة العينين ...

— أ كنت ترقبى ؟ ...

— لبثت وقنا مأخرذا بضوء ألاق ينبعث من روحك

الصافية ...

— أى ضوء تعنى يا « بتاح » ؟ ...

— ضوء وهاج ... لكأنه قبسة من النور الأزلى ...

أنت يا « نفرت » فيك من روح الإله نصيب ... إن تلك

السنين التى قضيتها بين الرمال الشاسعة ، تحت وقدة الشمس

الساطعة ، فى هذا السكون الشامل العميم ، أفاضت عليك

العذوبة والصفاء والطار ، وجملت منك مخلوقا أقرب إلى

نور الأزل منه إلى ظلية الإنسان ...

فأسبلت جفنيها ، وقالت في صوت مهموس :

هذه الرمال الشاسعة ، والأشعة المتوهجة ، والسكينة

الشاملة ، لن تبقى من حولي ... أحس أنها إلى زوال .

فأمسكت بيدها ، وقلت في تلهف وتخوف :

ماذا تقولين يا بنية ؟ أفصحى .

— إنها الرؤيا التي رأيته الساعة ، وأنا في غيبوبة اليقظة .

فشددت على يدها أقول :

ماذا رأيت يا « نفرت » ؟ ماذا ؟

فواصلت قولها وهي مغمضة العينين :

شاهدت بساطين خضراء ، ومياها دافقة ، وأناسا

متزاحمين ... دنيا عجيبة ليس لي بها عهد ...

فصحت على الفور :

يا لروعة الروح المشرقة ... ألم أقل لك إنك قبسة من
النور الأزلى ؟ ... ستتحقق رؤياك يا « نفرت » ... بل إنها
في سبيل التحقق الوشيك .

ففتحت عينيها جزعة تقول :

كيف ذلك يا « بتاح » ؟

— أتيت الساعة لا أخبرك بأننا سنرحل .

فهممت ، وقد اشتد جزعها :

نرحل ؟ إلى أين ؟

— إلى الأرض الخضراء ... عروس النهر العظيم !

فالتصقت بي راجفة ، وقالت :

وأين هذه الأرض الخضراء ؟

— إنها « أنب — حز » ذات الأبواب السبعة ،

والأسوار الناصعة البيضاء ، « أنب — حز »

العظيمة ... هنالك نبدأ حياة جديدة ، حياة الجهاد
في سبيل نشر الدين الحق ، ديننا الجديد ، نقيم
صرحه على دعائم وطيدة ... هنالك نعلی كلمة الحقيقة
العلیاء الی تستمد من النور الازل وجودها .
فازدادت انكاشاً واحتفاءً بی ، فأحطتها بساعدي ، وقد
صری فی روجی شعور غبطة وارتياح لم أعهده من قبل .
وغنمتم « نفرت » :

لأنی خائفة ...

— أتخافين وأنا معك ؟ سنرتحل حتماً يا « نفرت » !

فانزعجت نفسها منی بخافة ، وهي تقول :

لا ... لا أرتحل ...

... كيف ؟

— لا أبرح تلك البقعة الطاهرة ... مشوي « كاي » ...

أنا هنا موصولة به ... قلبي هنا دفين تحت هذه

النخيلات ، فكيف أرتحل عنه ؟

— إن « كاي » معنا حيثما نذهب يا « نفرت » ... إذا

حجب الناورس جسده اليوم عن دنيانا ، فإن نوره

قد حل في جسدي ، وإن روحه قد امتزجت

بروحي ... لأنني أنا « كاي » يا بني « نفرت » ...

الآن أريدني أهلا لأن أكونه ؟ ألا تحسبيني خليقا أن

أحوطك بحبي ، وأمنحك هداية وأمنا ؟

فترقت في عينيها الدموع ، وهي تقول في صوت

المستضعف :

هنالك في « أنب — حز » سوف يبتلعك الزحام ...

سوف يحتلفونك مني . . . سوف أفقدك

فلا أجذك معي .

فتلقيت وجهها بين يدي ، وأنا أحقد في عينيها
المختلطين ، وقلت :

لن يستطيع أحد أن يواعد بيني وبينك ... لقد
أصبحت جزءا من كياني ، لا انفصام لي عنك ...
أنت حواريتي الأمانة ، وربيبة تعاليمي ، واتسكون
خير معوان لي على أداء رسالتي .

ووجهتها تهوى على يدي ، وانخرطت في تقابلهما في حرارة
واحتياج ...



أودعنا «كاي» مستقره الصخري ، وتزودنا بما لا غنية
عنه لنا في رحلتنا الأرضية ، وخرجنا من واحتنا
الصخرية ، على أكتافنا أحمالنا ، نمضي على الطريق ،
مضوين ناحية الشرق .

شدّ ما كلفتنا الرحلة من مشقة ... صحراء قاحلة جرداء ،
لا تعرف لها بدءا ولا منتهى ، ترميها الشمس نهارا بشواظها ،
فتحيلها أتونا يتضرم ، وينزوها البرد ليلا بصقيعه وأهويته
كأنما هي مناشير تهرأ أجسادنا ...

وكنّا إذا متع الضحى ، أوينا إلى أقرب كهف أو جحر
نلتمس فيه الوقاية والراحة ، فإن لم نجد كهفا ولا جحرا ،

نهينا شبه خيمة تصد عنا وقدة الهجير ، حتى إذا أرخى
الليل سدوله نشطنا للسرى ...

وكثيراً ما كنت أجد « نفرت » تعروها كآبة ، ويبدو
عليها استسلام حزين ، فأحاول جهدى أن أسرى عنها ،
أغنى لها مقطوعات ، أو أسميها بعض القصص والأفاكيه ،
أو أسترسل أمامها فى مناجيات صوفية للإله الحق ،
نور الأزل ...

وكانت فى أوقات راحتنا تلوذ بقدمى ، متوسدة ركبتي ،
فأربت شعرها فى حنو وترفق ...
وذات ليلة ، والقمر يكسو الصحراء الواسعة بالألأله ،
قلت لها :

شدة ما أنا ضائق بمتاعب هذه السفرة التى تحتملينها بصبر
وجلد ... ولكن كل شيء يهون ، وستتحقق بغيتنا قريباً

في « أنب — حز » ... لقد أصبحت منا دانية المنال ...
فأجابتنى ساهمة :

أخشى أن ألقى في « أنب — حز » من الشدائد والمصاعب
ما تتضائل بجانبه متاعب هذه السخرة ...
— في « أنب — حز » نلقى خيراً وبركة وسعادة ...
فالتفت حينها غضباً ، وقالت :

لر استعلعت أن أحرق هذه المدينة لفعلت ...
فقهقمت أقول :

يا للطفلة ... لن تحرقها يا بنية ... بل مستحبينها ...
فأمسكت يدي ، وشدت عليها في جزع ، تقول :
ما ذكرت « أنب — حز » إلا استشعرت في أوصالي
خوفاً وقلقاً .. أرى في المنام أن أسوارها البيضاء ستهوى
على رأسي ، وتدفنني تحت أنقاضها ...

فأحطتها بذراعى ، وقلت :
« نفرت ، يا ابنتى ... ان تنقض عليك أسوار المدينة ،
بل ستلقاك بالترحاب ... ستفتح لك أبوابها المبيحة على
سعتها ... فتدخلينها آمنة بسلام ...
وبلغنا بعد لائى منطقة منافع النيل المزهوبة ، ذات
الماء الضحل ، والعشب المتكاثف ، وفيها تكمن أخطار
الضواري ، ولسكننا تفادينا من هجمات التماسيح وعجول النهر ...
بما وهبني الإله من فطنة وبصيرة ...
ولطالما حملت « نفرت » على كتفى ، وأنا أخوض
تلك المنافع ، فتشيع في نفسى راحة وهى متشبثة برأسى ،
وقدماها ترتطبان بعسدى .. ولطالما اتخذنا من فروع
الشجر وجذوع النيل مراكب تعيننا على اجتياز المنافع
البعيدة الاستراق ..

وأخيراً وصلنا إلى مجرى النهر العظيم ، فعبرناه ...
ولما احتوتنا الأرض اليابسة على الشاطئ الآخر ، تبدت
أمامنا الحضرة على مد البصر ، ففضينا نسير ...
وطالعتنا « أنب - حز » بأسوارها العالية البيض ...
ومثلت أحرق فيها من بعيد ، وأنا مهوور العين ، جيش
النفوس ، وإذا بي آخر راكماً ضارعا إلى الإله الأعظم أن
يسدد خطاي ...

ووصلنا إلى الأسوار ...

ومثلنا أمام البوابة الكبرى ، حيث يترامى الناس عليها
بين قادم ومرتحل ، وجعلت أتصفح الوجوه ، لملى أثر
بينها على من أعرف ، فلم أجد من يستوقف ناظري ...
وتجلت لي رسوم حائطية ، تمثل مشاهد دينية ، فوقفت
حياها أتطلع ...

وبدت على الدهشة ، فقالت لي « نفرت » :

ماذا في الأمر يا أبي ؟

فطفقت أعصر جبهتي ، وأنا أنتم في رسوم نظري ،
أحاول أن أكتنه معناها ، مهمما :
رسوم وكتابات لا أفقه لها مدلولاً ...

— إن ما يخفى علينا اليوم ينكشف سره لنا غدا ...

صبرك ...!

وكان عن كذب منا رجل ينظر إلينا متعرفا ، فتداني

منى يقول :

يبدو لي أنكما مغتربان

— نعم يا سيدي ...

— أطلبان عوناً ؟

— أرغب في استجلاء معنى هذه الرسوم .

— إنها صور تمثل السكاهن الأعظم « سنسكرع » وهو

يقدم القرابين مع الحواريين إلى الإله « بتاح »

— « بتاح » ... الإله ؟

— نعم أيها الرجل الطيب ... إنه إلهنا ... باعث

ديننا الجديد .

— أعلى ثقة أنت بما تقول ؟

فابتسم الرجل ، وهو يربت كتفى ملاطفاً ، وقال :

ليس فى الأمر من غرابة ...

والتفت إلى « نفرت » يقول فى ترفق :

اعتنى بأبيك يا بنية ... إن وعشاء الطريق أجهدت قواه .

وما لبث أن انصرف عنا .

وقالت لـ « نفرت » :

أسمعت القول ؟

— إن إلههم الجديد يدعى « بتاح » ...

— وهذا ما يحيرنى .

وعدت إلى الرسوم أقلب فيها النظر ، وألفيتنى أغنم :

« بتاح » أصبح إلهاً للدين الجديد ! ...

فقالت لى « نفرت » :

أىّ « بتاح » تعنى ؟ أنت ؟

فقلت عجيبا :

ذلك ما أخشى أن يكون !

فرفعت « نفرت » وجهها إلىّ ، قائلة فى سذاجة بريئة :

ألا يروقك أن تكون إلهًا ؟

فأجبتهما على الفور ، وأنا أمسك بيدها :

الزى الصمت يا « نفرت » ... لأنها ألغاز ... لا بد أن

نظّين ما ورامها .

وسرنا مجتازين البوابة ، وقلت لأحد الأُحراس :

أنا مغترب يا بنى ... أخبرنى أين ألقى رئيس الكهنة ؟

— فى المعبد الكبير ... مكانه المختار أيها الشيخ الغريب .

وشكرت له ، وتابعت خطوى ، وطوتنا المدينة فى

جوفها ، ودارت الدنيا أمامى ، وزاغ بصرى ...

هذه « أنف » - حزن ، أراها بعد اغترابي الطويل ...
مخرجت منها طريداً مهدر الدم ، وعدت إليها اليوم وأنا في
دوامة من المعميات !

ما بال هؤلاء السابلة يشيرون إلى ، ويتهايمسون بي ،
وفي نظراتهم تساؤل ، كأنى من عجائب المخلوقات ؟ ...
وما هؤلاء الأطفال يفرون من وجهي فزعين ، كأنى من
أغوال البرارى ؟ وما للفتية العابثين يقذفونى بالحصى ، كأن
بي جنة ؟ يا لهذا اللقاء الأليم !

ووضع على « نفرت » ، وهى تدير بصرها حولها سيماء
خوف واستطلاع ... وأحسست بيدها تشد على ساعدى ،
فقلت لها :

ما بك يا ابنتى ؟

فهمست لى :

لأنها المدينة التي رأيته في نومي تهـاوى على رأسي ،
وتواريني في ركامها .

فلاطفها أقول :

أنت في حمايتي ... لا تخشى شراً ...

وأخيراً اهتديت إلى المعبد الكبير : بناء شامخ
الذرى ، ألفيت أنالـه في تهب وتعجب ، وبيننا أنا مستغرق
في هواجسي وأخيلتي ، إذ علت ضجـة ، وساد هرج
ومرج ، وألتقطت أذني أصواتاً تقول :

« سنكرع » ... رئيس الكهنة « سنكرع » .

وما هي إلا أن أقبل علينا موكب حافل ، والناس على
جانبيه مطأطئة رؤوسهم من خشوع . ولما اقترب مني استبان
لي من نفامته وأبهته ما لم يخطر لي ببال ... شاهدت محفة
تجلاها أستار من سندس ، يحملها عبيد أشداء ، أجسادهم

العارية تلتصق في وهج الشمس التماح الصفائح المصقولة ، ومن
حول المحفة كهنة وحاشية وجنود .
ولمحت في المحفة رجلا جليل المنظر في حلة ثمينة ،
تحيط به الوسائد والنمازق ، وتتعهده المراوح الكبيرة
يمتة ويسرة .

محال أن يكون هذا هو صاحبي « سنكرع » ... محال !
وملت على رجل بجواري أقول :
من يكون صاحب هذه المحفة ؟ ...
فأجابني وهو محني القامة :
ألا تعرف رئيس الكهنة « سنكرع » ؟ ...

ولاح لي وجه صاحب المحفة بملاحه ، فلبسني ذهول ،
وانتظرت حتى ترجل ، فخطوت إليه ، وأنا بمسك يدي
« نفرت » أدفع جموع الناس دفعا ، وسمعت زجرة الخلق

من حولي ، وشدّ عليّ الحراس يقولون :

ماذا تبغى ؟ ...

فصحت أردد :

أريد أن ألقى رئيس السكينة ! ...

وتجمعوا دوني يأخذون عليّ الطريق ، وازددت صياحا :

اتركوني أذهب إلى رئيس السكينة ... أريده لأمر جلل ...

وسمعت صوتا مهيّبا يقول :

خلوا عن الرجل ... ليتقدم منا ...

وأقبلت عليّ « سنسكرع » ومعى « نفرت » ، وبهرت

منظره ، فوقفت حائرا مباهل الفكر ، وسمعته يستأنف القول :

ماذا تطلب يا رجل ؟ ...

فسموت إليه ببصري مهتاجا أقول بملء فمي :

إني لك صديق قديم ... طال اغترابي ... أريد أن

أففى إلك بحدفك سخطفر ... ألا تعرفى ؟
فتفحصنى لفظات ، رقد عقد ما بفن حاجففه ، ثم جمجم :
سألقاك بعد ففن ...
والتفت إلى عرفف أفراسه فقول :
قودوا الرجل وابنته إلى مشوى الغرباء ... ففسكونا
فى فراسة المعبد « رخت » والأمة « خنوت » ...
فأحاطت بف وبالفناة شزيمة من العسكر ، على ففن
سار رففس الكفنة إلى باب المعبد ، متفادفاً فلفه ومابة ...

كان مشوي الغرباء الذي ساقونا إليه ، جناحا مستقلا في
 المبني الخافي للعبد ، وفي حجرة متواضعة منه كان مقامنا ،
 يتولى حراستنا العبد « رخت » والأمة « خنوت » .

ومرت بي فترة حسيرة وحنق ، واستبدت التعب
 بـ « نفرت » ، فلكها سيئات ، فبسطت عليها دثاراً ، وجلست
 منها عن كذب حذراً أترقب .

وبينما أنا في ملتطم من فررض وظنون ، قدم الحجرة
 العبد « رخت » والأمة « خنوت » ، وكانا متماثلين في
 بسطة القامة وصلابة العود ، كأنهما محاربان جسوران ،
 بيد أن « رخت » جهم صارم الملاح ، على حين بدت
 « خنوت » أنيسة تلوح على عيها بشاشة ...

أبلغني « رخت » أن رئيس السكينة يبغيني ، فنهضت على
الفور ، ونظرت إلى « نقرت » جزعا ، فعجلت « سعنوت » أقول :
لا تخش عليها بأسا ... إنها في أمان ... سأرجعها ...
وسرت مع « رخت » يشملنا صمت عميق ، وجاس بي
خلال سرداب تغشاه عتمة ، فأنتهى بنا إلى باب دخلنا منه ،
فإذا نحن في حجرة متوسطة تسكاد تخلو من أثاث ...
وسمعت « رخت » يقول في صوت الأمر :
انتظر ... لا تبرح مكانك ...
وانصرف عني في خطا ثقال ، وقد رد الباب خلفه ...
ومثلت أقلب الأمر على شتى وجوهه واحتمالاته ...
وصاحقت مسامعي خطوات متساوقة ، وما هي إلا أن
انفرج الباب عن طيف « سنكرع » ... دخل ، ويده أغلق
الباب ، وطفق يتأملني متفحصا ، وعيوننا موصولة ، ثم

خطا نحوى فى ريك ، وقال رزين اللهجة :

أفصح عن شخصيتك ... من تكون ؟ ...

فأجبهته :

ألا تعرفنى يا « سنكرع » ... أنا صديقك القديم ...

أنا « بتاح » ...

فتعقد جبينه ، وهو يردد مهمهما :

« بتاح » ... « بتاح » ... أمر لا يستسيغه العقل ! ...

فأقبلت عليه مهتاجا أقول :

أنعم النظر فى وجهى ... أخفيت عنك سمانى إلى هذا

الحمد يا « سنكرع » ؟ ... أنا « بتاح » ... أنسيت ما كان

من أمرى فى نشر العقيدة وإحياء الدين ؟ ...

— صد ... لا تعل من صوتك ...

... أعرفتنى أم مازلت تنسكنى ؟ ...

— لقد خامرني فيك شك ، حين اقيتلك بباب المعبد ...
إلا أن معرقى أو إنكارى لا يقدمان ولا يؤخران ...
لم يعد لذلك كبير شأن الآن ...

قال ذلك في لهجة ترفع ، فقلت :

— أسألك الصراحة ... أما زلت تشك في «بتاح» ؟ ...
فأجاب :

— لم تعد شخصيتك ذات بال ... لقد فصلنا في أمرها
فصلاً حاسماً لا يقبل المعاودة ...

فنظرت إليه مخيظاً أقول :

— يبدو لي أن عودتي لم تقع موقع الرضا منك ...
أسألك قدومي ؟ ...

— لا ... البتة ... ليس في قلبي إلا الشفقة عليك ...
— الشفقة على أم الإشفق منى ؟ ...

- أى إشفاق ؟... أنا لا أخشى أحداً ...
- لا تحسبني يا « سنكرع » ، أنا فسك فيما تم لك من شأن ...
- المنافسة تقوم بين اثنين من البشر يا هذا ...
- ألسنا كلانا من البشر ؟ ...
- فصمت لحظات ، وهو يرمقني بنظرات غامضة ، وقال :
- أنا من البشر ... أما أنت ...
- فبادرت أقول :
- فن أكون إذن ؟ ...
- أنت ... ما أنت إلا طيف ... خيال لشخص
- لا وجود له ...
- أهكذا تصفني يا « سنكرع » ؟ ...
- فتقدم مني ، وأمسك بساعدي يضغطه ، وقال :
- ألا تعلم أن « بتاح » هو إله هذا البلد الأمين ؟ ...

— لم يكن « بتاح » إلها ... إنه بشر من لحم ودم ...
وما هو ذا يتنفس أمامك ...

— حذار أن تقول إنك « بتاح » ، إذا أردت لنفسك
السلامة ... هيهات أن يكون معبود هذا البلد رجلا
يمشي على الأرض ، وما يجرؤ اليوم أن يتسمى باسمه
واحد من البشر .

فألفيتني أضرب رأسي بكلكلتي يدي ضربات متوالية ،
وكان بي لوثة ، وتصايحت قائلا :

أكاد أجن إزاء هذه الطلاسم والأحجيات ...
فقادني « سنكرع » إلى المتكبر ، وقال في هدوء :
جلوسا ... نتحدث معا في روية وهدوء ... وإن
يستعصى علينا حل نرتضيّه ...

وجلسنا صامتين مليا ، ثم استأنف « سنكرع » قوله :

— في المعركة التي دارت بيننا وبين أتباع « بهاتور » ،
أيقن الجميع أن « بتاح » داعية الدين الجديد سقط
صريعاً ، وتمزقت أوصاله ، وتناثرت مختلطة
بأوصال من سقط من الشهداء ، فلم يعبث له
على أثر ...

— وأنت ماذا كان عليك بجاية الأمر ؟ ...
— لم أتحقق الأمر في دوامة الأحداث على يقين ...
أنجا « بتاح » ، بيدفه ، أم لقي مصرعه ؟
فقلت وأنا منكس الرأس ، أضغط جبتي مضطجاً :
لم أستطع وقف القتال في تلك الليلة الليلاء ، وهالتي
تساقط الأبرياء ، وغشيتني ذهلة ، فلم أدر بنفسى
إلا وأنا في متاهة الصحراء
وأمسكت عن الكلام ، فسمعت يقول :

واصل قولك ، وحدثني بما كان في غيبتك ...
فقصصت عليه قصتي ، وكيف اهتديت إلى الشيخ
« كاي » ، وكيف أمضيت معه بقية أيامه ، وكيف عدت
مع حفيده « نفرت » التي تبنيها إلى أرض الوطن ، وقلت
في ختام حديثي ، ولهجت فيها مرارة وأسف :
عدت لأرى الدنيا غير الدنيا ، والدين غير الدين ...
ورحت أذرع الحجرة بخطوات مضطربة ، وأنا أردد :
أين تعالمني التي تركتها خافي ، وأنا أرجو لها النور
والازدهار على يديك ؟ ... وما خطب هذا الإله
الجديد ، إله الزيف والضلال ؟
فنهض « سنكرع » ، ووقف أمامي يحدجني بنظره ، وقال
خشن النبرات :
اقصد في قولك ، واعلم أن كل ما نم هو عين الهواب .

ثم رمى الأفق بعينه ، وكأنه يستعيد حلياً بعيداً ، وقال :
كاد الدين يندثر ، وأصحابنا يتهاوون جملة في المعركة ،
الشعواء ، وأنت لا تعرف لك مصير ، فاضطرت
أنا وحفنة من الشيعة تشنهم الجراح أن نتواري
عن العيون ، محتمين بالكهوف والأجحار ، فراراً
من التعب والطلب ... يالها من أيام شداد ...
جزناها بشق الأنفس ، وأوشكنا فيها أن نتفانى ،
فتنطوى راية الدين معنا ، لولا معونة الأمير الشاب
« مينار » ابن فرعون ...

فتطلعت إليه متذكراً ، أقول :

« مينار » ... كنت أعلم ما بينه وبين رئيس الكهنة
« بهاتور » من شقاق ... ولا أنسى أنه عرض علينا
الانضمام إلينا ، فلم أرتض أن يتخذ نصرته الدين

سبيلا إلى مأرب له ، يشقى غليله ...

فنظر إلى ، وقد برقت عينه ، وقال :

لقد سعى إلينا هذا الأمير ، وقد ضاق ذرعا بطغيان

رئيس السكينة « بهاتور » وتسلمه على المدينة ، حتى

لم يبق لفرعون معه سلطان ... سعى إلينا متودداً

لمبادئ الدين الجديد ، وأمدنا خفية بما استطاع

من عون ، ونذر أن يعترف بديننا إن ولى الأمر

بعد أبيه ، تخلصاً من وطأة « بهاتور » ... وكان ! ...

— و « بتاح » ... كيف صار عندكم إلها ؟ ...

نخطأ بضع خطوات ، ثم عاد يقول :

نعم ، لقد صار إلها ... بعد انتهاء المعركة ، شاع

بين الأنصار أن « بتاح » ارتفع إلى العلا ، عقب

مقتله ، وأن روحه قد اتحدت بالقدس الاسمى ،

فإذا هو إله ، وما لبثت الإشاعة أن أضحت عقيدة
راسخة لا يززعها ريب ...
— وكيف أبحث لنفسك أن تجارى القوم فيما ابتدعوا
وما أشاعوا ؟
— إنقاذاً للعقيدة ، وجمعاً لشمل الأنصار ، بعد أن
تخلى عنا « بتاح » ولم يظهر له أثر ...
... لم يكن استخفافاً تخلياً عن واجب ... لقد آثرت
الزوح عن بلدى ، والاعتكاف فى مكان قصى ،
بعد أن تبين لى فى وضوح أن مواصلة الدعوة إلى
دين جديد فى ذلك الوقت تقتضىنى إراقة دماء
وإزهاق أرواح ... وهذا ما ياباه وجمداني كل
الإباء ... لقد دعوت إلى دين مصافاة وسلام ، لا دين
حرب ، وصدام ...

— هذه حكمة تستوحى فيها مثلك الرفيعة ، وإنما
لتتنافى مع طبائع الأشياء ، ولا توائم ضرورات
الحياة فى الهدم والبناء ...

— أية حياة تلك التى تقوم على عداء وصراع ؟
— إن الحياة جهاد فى سبيل العقيدة ، فإذا لم يكن جهاد
فلا عقيدة تحيا ، ولا دين يسود ... إن هو إذن
إلا جمود الضعف والتخاذل والاضمحلال ...

— أمتهى أنت بأنى ضعيف متخاذل يا « سنسكرع » ؟
— لقد أبيت أن تساير نوااميس الطبيعة ، وتجارى
واقع الحياة ...

— علينا أن نطهر هذه النوااميس من أدرانها ، وعلينا
أن نروض الواقع الهمجى ، ونهذب حواشيه ...
— جهد ضائع ، وسراب خادع ...

... انا عشتتم بالدين والعقيدة أيما عبت ...

فصاح « سنكرع » يقول :

— إن جوهر الدين معصون لم تمسه يد عابت ...

— يلهزيمة التي سلقت بنا !

فظل « سنكرع » وقتاً صامتاً مرفوع الحامة ، ثم قال :

إني أعمل جامداً في سبيل الخير المطلق ... حررت

البلد من الإرهاب الديني ، وأشعت الطمأنينة في

القلوب ، وأصبح الدين بين أهاليه سبيل تراحم

وتعاطف ، لا أداة اضطهاد وتشكيل ... لقد عملت

كثيراً ، وواصل عملي ما حييت ...

— ولكن أين دعائم ديننا الأصيلة ، دين الإله الحق ،

نور الأزل ؟

— أصالة الدين معسرة ... من الخير ألا تتعجل ...

ستنمو هبادىء الدين وتزعزع مع الزمن ... لأنها اليوم
غراس ، ولكنها فى غد أدواح وارفة الظلال ...
— من الذى عليك هذا البدع من القول ؟ ...

— علمتى إياه تجارب الحياة ...

— تجاربك هذه لا تسير الحقائق والتعاليم ...
فأطلق « سنكرع » ضحكة شوهاء ، وقال :

الحقائق والتعاليم يجب أن تسير ما تسفر عنه تجارب
الحياة ... لقد عشت أنت ما عشت بمعزل عن الحياة
والأحياء ... عشت فى عالم صفته من أحسلا ملك
المثل ... عالم لا يلائم الواقع فى قليل أو كثير !
فنظرت إليه مغضباً ، وهو منتفش فى حلتة الثينة ، وقلت له :
الآن يتجلى لى مبعث هذا الترف الذى أنت فيه ...
حياة راقية منعمة ... وخدم وحشم ... وعبيد

وأحراس ... ونحن الدعاة إلى البساطة والتقشف ،
إلى الإعلاء من شأن الروح ، إلى تطهير الجسد
من نزواته الجائحة ...

فقال في صلابة :

الإعلاء من شأن الروح بإهمال الجسد وتعطيل
مطالبه ، غلو لا تحمد عقباها ... لا بد من مزاجية
ومداخلة ، لكي تتوافر لنا حياة سوية لا شذوذ
فيها ولا حرمان ...

— أنت بأقاربك هذه تهدم ما بنيت لك .. مارسمت أنا
« بتاح » ... « بتاح » رائد هذا الدين ... !

— صد ... لا تسم نفسك هذا الاسم الأعظم ، وإلا فتك
بك عابده ... تعقل ولا تكن جامدا ، تعاكس
بأحلامك الموهومة تيار الواقع الجارف ... تخير لك

اسماً آخر إن طلبت بين قومك معاشاً ...
وسكت لحظات ، ثم أكل قوله :
ما رأيك في اسم « بتاح - حتب » ؟ ... اسم لا يبعد
بك عن اسمك ولا يشير عليك بسخط الخلق ...
فحككت يدي على صدري ، وقلت :
من تحسبني يا « سنكرع » ، ؟ أحسببني طفلاً يتلقى
النصح ... ؟
فقال في جد :

أنسيت يا « بتاح - حتب » أني رئيس كهنة « بتاح »
الإله الأعظم ؟ أنا صنو فرعون ... صاحب الملك
والسلطان ... أملك من الأمر في البلد كفاء ما يملك ...
لا تسكن عنيد المراس ، صعب القياد ، وتقبل مني
ما يتيح لك عيش الحرية والكرامة ...

— وإذا لم أذعن ؟ ...

— سأضطر إلى ما لا تحمد ...

ثم أزهرت عيناه ، كفسر عتي ، وقال في لهجة المتوعدة :
إذا أعلنت من أمرك غير ما أشرت به عليك ،
فلن تجد لك مصدقا ، حتى أتباعك القدامى ... لن
يمضوا في تبارك مهما تفعل ... إنى الأمر الناهى ...
كلتى هى العليا ... لقد استتب الأمر للدين على
الوجه الذى انتهى إليه ، وارتضيناه أجمعين ،
ولن تستطيع أنت ولا غيرك له تبديلا
ولا تحويلا ...

وهزنى هزة عنيفة ، واستأنف قوله ، وهو ينهد

بنظراته فى عيني :

أ. دل الستار على ماضيك ، وأبدأ صفحة جديدة

باسمك الجديد . سأستعينك ما أردت ... سأعينك
كل العون ... فكر فيما قلته لك يا « بتاح - حتب »
وتوخ سعادتك وسعادة ربيبك ! ...
وحياي مودعا ، وزايل الحجره ، يرفل في حلتة
الثينة . . .

٧

اليوم أهاذن « سنسكرع » ، ولكن مهادنتي له إلى حين ،
ارتضيت أن أسمى « بتاح - حتب » ، حتى لا أثير ثائرة
القوم ... لأنهم ليعتقدون أن « بتاح » قد ذهب شهيد رسالته
المقدسة ، وأنه كوفيء على ذلك بأن استحال إلهما ، هو
معبود الدين الجديد ، وذلك تمثاله يتصدر المعبد ، يتلقى من
حوله قرايين المؤمنين ، ويتسمع إلى ما يجأرون به من
ضراعة وابتهاال ...

ولقد عرض عليّ رئيس السكينة « سنسكرع » ، أن أتخذ
مثواي أنا و « نفرت » ، في جناح من المعبد يطيب المقام فيه ،
فأبيت ، وقنعت بحجرتين ضيقتين عاريتين من الأثاث خلف
المعبد ، إحداهما لي ، والأخرى لـ « نفرت » ...

ولم تطوِّع لى نفسى أن أستبدل بملابسى المنسوجة من
الآلياف ، وكذلك احتفظت « نفرت » بثيابها البالغة
السذاجة ... أما الطعام فكنا نعدّه بأيدينا ، ونسكتفى منه
بما يقيم الأود ... وهكذا واصلنا فى « أنب - حز » حياتنا
التي كنا نحياها مع الشيخ « كاي » فى الواحة الخضراء ، حياة
النسك والزهادة ، حياة من يؤثر السمو الروحى على توافه
الدنيا وقشورها البراقة ...

أما العبد « رخت » والأمة « خنوت » اللذان أقامهما
« سنسكرع » حارسين يتعهداننا بالخدمة والرعاية والرقابة ،
فكانا زوجين ، جاززا عصر الشباب ، يضمهما مسكن خاص
على مقربة من المسكان الذى ناوى إليه . وكانت الأمة
« خنوت » ثرثرة فى طبعها فضول ، وطالما جلست معنا
تصف لنا « أنب - حز » ومعبدها العظيم ، وتروى لنا أشتاتا

من أفاصيص الناس . ثم تنبرى لاستطلاع أخبارنا ، فكنت
أفضى إليها بهذرات من حياتي وحياة « نفرت » ، في صحبة
القديس « كاي » .

واطمأن « سنسكرع » ، إلى ، لما آنسه من أنى أمارس
عيش النساك ، وأنى عن الدنيا عزوف ، وللتناس معتزل ،
فاطلق لى حرية الخروج من المعبد فى الفينة بعد الفينة .
وكان القلق يساور « نفرت » بادية بدء ، ولكن
عاودها الهدوء لثقتها بما أقول ، إلا أنه هدوء صامت ينشاه
تأمل أقرب إلى الذهول . وكثيراً ما كانت تحقق فى وجهى
بلا كلام ، كأنها تسألنى : أهذا ما كنت تطمح إلى تحقيقه
فى « أنب - حز » ؟ إله أنت أم لإنسان يا « بتاح » ؟
فأربت يدها ملاطفاً ، وأقول :

أنا الآن « بتاح - حتب » يا « نفرت » ، ولزام أن أكون

كما أرادوا لي حتى تنكشف الأمور على حقيقتها ... علينا
أن نصطبر !

وكنت أمضى معها الوقت نتذاكر شئون الدين ،
ونصلي للإله الحق نور الأزل ، عسى أن يحبونا من لدنه
بالعون والتأييد .

وكانت « نفرت » تعيش معي ، كأنها ظل لي ، أحس
روحها متعلقة بروحي ، وأضحت رياضتنا المختارة أن نجلس
خلف المعبد ، نفترش الحصباء ، أو نضرب في بسيط
الصحراء ، متجنزين منطقة الحقول والبساتين الممتدة على
شاطيء النهر الدفاق ، حيث تزهو الحضارة ويتغلغل العمران .
وتعودت من « نفرت » أن أراها ، وهي سائرة بجانب
مصغية إلى حديثي ، تنكس رأسها ، فأحوطها بذراعي ،
أغمدها بحنان أبوى فياض ...

كم كانت عذبة تلك الزهات الخلوية التي كنا نستمريء
فيها المعادة الحقة ، من طهر نفس ، وصفاء روح ، وقوة
إيمان ...

وقد عرفنا سكان المنطقة في تجوالنا المتكرر ، وعدونا
من الزهاد الغرباء الذين يتنكبون عن لقاء الناس .



في ضحوة يوم ، فوجئت بمقدم « سنكرع » في أبهى
حلة وأزهى زخرف ... ثوب من الحرير الموشى ، ونطاق
بالذهب محلى ، وشملة حمراء تتوهج ، وعلى الرأس طرطور
مستطيل مثلث الأركان ملون الخطوط ، ومن أعطافه يتضوع
عطر نفاذ ...

دنا منى هادىء الالبسةام ، يقول :
اليوم يقام احتفال مهيب فى البهو الكبير ... وإنى أدعوك
إلى شهوده يا « بتاح - حتب » ...
ولم تسكن قدهاى قد وطئتا أبهاء المعبد ، بل كنت
أتحاشاها ... وما عرفت من بناء المعبد تفصيلا إلا هاتين
الحجرتين اللتين اتخذتهما أنا و « نفرت » مقاما ...

أجبت الداعي بقولي :

لم تريدني على أن أحضر هذا الاحتفال ؟ ...
... إنه احتفال مهيب ، نبدأ به عيدنا الكبير ... عيد
الشباب ... عيد التعارف والتآلف بين الفتيان
والفتيات ... عيد الزواج في مودة ورحمة ومصافاة ...
نحييه كل عام مستمدين من الإله ، بتاح ، أن يبارك
لنا في النسل ، ويعمنا بالخير ...
وصمت لحظات ، وهو يخالسنى النظر ، ولما ألقاني ساكن
بالنفس ، لا يهزني قوله ، وأصل حديثه :
إنه عيد أيام متوالية ، خلالها تعقد الزوجيات بين
الشباب في مهرجانات شعبية عظيمة ... حضورك
هذا المهرجان يتيح لك أن تشهد زهرات الشباب
وهي في نشوة عبادتها ، فتتجلى لك عظمة الدين ،

وترى كيف رسوخ العقيدة في قلوب الناس ...
سنزور الآن بهو الاحتفالات ، حيث يقام حفل
اليوم والحفلات التالية ، والبهو الآن خال من الزوار ،
فالفرصة سانحة لأن تملأ عينيك بما يحويه من روائع ،
ولك بعدئذ أن تشهد الحفل في المكان الذي تختار ...
وأمسك بيدي وسار بي ، وأنا صامت تعتلج بين جنبي
الاحاسيس ، وتصطرع في رأسى الخواطر والأفكار ...
وانثنينا نخترق دهايز طوالا ملتوية ، كأنها أجواف
الشعابين ، وكانت المسارج الزيتية الموقدة تجاهد عبثاً في مقاومة
الظلمة الغاشية ... وتراوت لى بعض مراديب ضيقة تنشعب
من هذه الدهاليز ، غارقة في ظلام وصمت ، يفوح منها حنوط ...
لم نتبادل خلال مسيرنا حديثاً أى حديث ... وانتهى
بنا المطاف إلى فناء رحب ، يظالله سقف رفيع ، مقام على

أعمدة ضخام ، وفي جنباته ظلمة رقيقة كأنها غبشة السحر ...

ومال على « سنكرع » يقول :

ها نحن أولاء قد بلغنا بهو الاحتفال ...

ودرت ببصرى يمنة ويسرة ، فهالني ما أشهد من نفامة ...

كانت الأرض تحت أقدامنا سوداء ملامء ، لها بريق أخاذ ،

والجوائظ والعمد من حولنا حمراء عليها نقوش زرق ...

وأحسست يد « سنكرع » تأخذ بساعدي ، وتنحوي بي

ناحية ، وهناك طالعني تمثال سامق ضخم ، على هيئة

إنسان ، واقف وقفة إمرة وسلطان ...

وألقيت « سنكرع » يركع أمامه في تخاشع ، ويرتل

أدعية وصلوات ، ثم عاد إلى وقفته بجاني ، فقلت له ، وعيناي

شاخصتان إلى التمثال :

لمن ركوعك يا « سنكرع » ؟ ...

— للإله «بتاح» ... إلهنا الأعظم ...

فبدت على شفتي ابتسامة ساخرة ، وقلت لرئيس الكهنة :

وماذا كنت تتفوه به ؟

— صلاة تحية ، أستقبله بها .

فقلت له هلي الفور :

أمرؤا بي يا «سنكرع» ؟

فأجاب :

كلا !

فصحت :

أتؤمن بهذا الإله يا رجل ؟

فلم يحرجوا .

فكررت :

قل .. ما مبلغ إيمانك بما تقول وما تفعل يا «سنكرع» ؟

فربت كتفى ، وقال رزين الصوت :

لا مناص من الإيمان ... يا مبتاح - حتب ، .

- أتعنى أنه لا مناص من الإذعان للأكاذيب

والضلالات ؟ وكيف تتجلى الحقائق إذن ؟

- ما كل حقيقة يجب أن تقال ... ولكل شيء أوان !

فعلا صوتى قائلا :

جدل زائف ، ومهاترة جوفاء !

والتفت إلى التمثال أنامله ، وأنا صامت مأخوذ .. ثم قلت :

لقد أجدتكم صنعه حقا ... إنه هائل ... رائع ...

عظيم ... إنى أحس ضآلة شخصى بجواره ...

يا للخرية ! ... الحقيقة تافهة متخاذلة ، على حين

تغدو الأكذوبة فى بهاء ورواء ... !

وجاشت نفسى ، والتفت إلى منكرع ، أقول :

دعني أبارح المكان ...

— ألا تبق لي لحضر الاحتفال ؟

— أكاد أختنق ...

وتلفت حولي ، أستبين الباب ، فما إن وقع عليه بصري ،

حتى دفعت بخطاي نحوه ، وسرعان ما نفذت منه أستقبل.

فيض الهواء والنور !

ماكدت أخرج إلى الساحة حتى ألقيت جماهير الفتيان
والفتيات يحتشدون حول المعبد ، تنبدي مياهيح العيد عليهم
في حللهم وحلامهم ، ومن شعورهم الفاحمة المرجلة يضوع عبق نفاذ ،
وبأيديهم خصل الرياح بها يلوحون في طرب واستبشار ...
سرت حديث الخطأ ، متحاشيا أن أخاطب الزمر ، واتخذت
سمتي إلى المنطقة الجرداء الخالية من العمران ، ورحمت أضرب
فيها على غير هدى ، وأنا فريسة لأفكار متضاربة ...
يالى من « منسكرع » ! ...

أى رجل ذاك ؟ ...

أمضلل هو يكذب قصداً ، ليستمع بما هو فيه من
وجاهة ورفاهة ، ومن إمرة وسلطان ؟ ... أم قد غدا صريع

أرواح الشر ، عشتت في جسده ، فبدلته خلقا آخر لا يمت
بصلة إلى خلقه أول مرة ؟ ...

توطدت أكذوبة الإله ، بتتاح ، فأضحت حقيقة مسلماً
بها ... أفأرضى أن أتابع حياة النفاق والخداع في هذه
المدينة ، وأنا الذى وهبت نفسى لتبديد الأوهام ومحاربة
الأكاذيب ، تمهيداً للحقائق الخالصة أن يعلو منارها ؟ ...
أفأرضى أن أبقى هكذا على هامش الوجود لا شأن لى
ولا بال ؟ ... إلى متى الصمت والجلود ؟ ... ألا أصدع بالحق
وأدافع عن الحقيقة الأصلية ، وإن لقيت فى سبيل ذلك
حتى ؟ ... وه نفرت ، ريديتى ... ماذا هى صناعة بعدى ؟ ...
أليس من واجبي أن أعيدها إلى واحتنا الحبيبة ، وأن أحيا
معهها فى جوار هكاي ، حياة زهد وعفة ، حياة نقاء وصفاء ؟ ...
وطال تجوالى ، وأنا أضرب فى متاهات ومجاهل ، والشمس

تلمبني بسياطها الحامية ، والرمال من تحت قدمي تسكاد
تشويهما شيا ...

ولاحت لي من بعيد خربة ... فهرولت نحوها ، ولما
دانيتها ألفتني أمام فجوة ، لم أتردد في النزول إليها ... وبدأ
لي على الفور أنها أطلال مقبرة عني عليها الزين ، ووجدتني
أتهاوى وأنا أحس برد الراحة في جوف هذا المكان المظلم
الرطب ، وما أمرع أن شماني خدر ، أسلمني إلى رقاد ثقيل ...
وحين استيقظت ، وبارحت المقبرة ، تبين لي أني قضيت
ساعات وأنا في غيبوبة النوم ، إذ كانت الشمس وتشد تؤذن
بالمغيب ، وصفرة الأصيل تخضب حواشي الأفق ... وانتظمتني
رعدة ، وانطلقت في عجلة ، مسترشداً بوحى بصيرتي أستعينها
على بلوغ طريق العود ...

وبعد لأي طالعي ذلك البناء الشامخ ، معبد الإله

« بتاح » ... تتطامن خلفه أبنية المدينة وبساتينها الحالية ...
وتراءى لى الباب الخلفى ، حيث يقوم ممسكى ، وعليه تجلس
« نفرت » بجوار رجل أجهله .

وما لمحتنى « نفرت » حتى هرعت إلى تترامى على صدرى ،
شرقة بالدمع ، وسمعتها تغمغم :

كيف نتركنى وحدى طوال هذا الوقت ؟
فطوقتها بذراعى فى حنو ، وقد فاضت مشاعرى ، وقلت :
ضاللت طريقى وأنا أجوب البيداء ، فأرهقنى السير ،
فرقدت فى فجوة وملسكنى نعاس ...

فسمت برأسها إلى ، ومسحت وجهها تقول :
أين أصبت طعامك ؟

— لم أطعم شيئاً .

— ولا أنا أيضا ... لقد أعددت الغذاء ، ولم أذق منه

قليلا أو كثيرا ، منتظرة أوبتك ...
وأخذت يدي كما تأخذ الأم بيد طفلها ، ووقع بصرى
على الفتى الذى كان يجالسها ، فقلت :
من هذا ؟

— لا معرفة لى به ... ألفتى بالباب أرقب عودتك ،
وأنا قلقة حيرى ، فكث معى يسامرنى ويسرى
عنى ... إنه من يحتفلون بالعيد .

وتقدمت من الفتى أحياه وأشكره ، فقال لى :
إنى يا عمى أدعى « بنكاو » ، وقد أسعدنى الإله « بتاح »
بلقاء ابنتك « نفرت » ، فقضيت معها وقتاً هائلاً ...
وكان الفتى فارح العود ، عريض المنكبين ، متملئاً بالقوة
والحيوية ، وأما نظراته فنفاذة جادة ، تدل على اعتداد
وابجتراء . وبدأ لى أنه ميسور الحال . ولما ألفتى مرهقاً

أنشد الراحة ، حيانى فى أدب تحية الانصراف .
ودخلت ومعى « نفرت » إلى مسكننا ، وتناولنا طعامنا
المتواضع ، مفترشين الحصير ، وأماننا جرة الماء ...
وبينما نحن نطعم ، سألت فتاتى :
ماذا قال لك الفتى « بنكاو » ؟

— حدثنى حديث العيد ، ووصف ما يتجلى من مباهج
فى المدينة ، وما يزدحم من أشياء معروضة فى
الأسواق ... كان حديثه عجيباً ، واقده اختلط بعضه
ببعض فى سمعى ، واكتظ به رأى ...
— لا تتعجبى فكرك يا ابنتى « نفرت » بمثل هذا الحديث ...
ليس ثمة فائدة ترجى منه ... إنك بعيدة كل البعد عن
تلك الدنيا الصاخبة التى حدثك الفتى حديثها المهرش ...
أنصح لك أن تنفضى سمعك من كل ما قاله لك « بنكاو » ...

فغممت :

سأفعل يا أبي ! ...

وعندما احتواني فراشي ، وتلست الرقاد ، وجدتني قد

ألم بي الأرق ، وخاصم النوم عيني ...

ظل طيف ه بشكار ، لا يهرب عن مخيلتي ، سواد ليلتي !

وفي الغداة مضيت مع « نفرت » إلى المنطقة الجرداء ،
 نهجوس خلالها بعض وقت ، لتجنب جموع الشباب الوافدين
 على المعبد من كل فج ، احتفاء بالعيد ... وكنا نسير الهوينى
 مستغرقين في تأمل وتفكير ، وربما قطعنا الصمت بأحاديث
 قصار نتبادلها في اقتضاب ...

وارتسمت على وجه « نفرت » أمارات سهوم وشroud ...
 أما أنا فقد نارشني قاق خفي ، حاولت أن أصرفه عني عبثا .
 وثقلت خطا « نفرت » ، فسكانت كأنما تقتلع قدميها
 اقتلاعا ، فملت عاينا أقول :

ما خطبك يا « نفرت » ؟ ...

فأجابت وهي تضغط جبهتها بيدها :

لا شيء ... لا شيء ...

— أمتعة أنت ؟ ...

— قليلا ...

وعادت تضغط جبهتها ...

— إذن نعود ...

— لا ... لا تفسد عليك جولاتك ...

— حسبنا ما قطعناه من شـوط ... الشمس شديدة

السطوع ، حامية الشمع ، فلنعد ... سنقضى يومنا

في مسكننا ، حيث الجو رطب ، والضوء خافت ...

سننأى عن صخب المجد وضجيجه ...

فقلت في نبرة استسلام :

افعل ما تراه صالحا ...

وواصلت الحديث أقول :

إن مثل هذا العيد لم يخلق لنا يا بنية ... عيدنا قائم
في قلوبنا ... نحتفي به وقتما نريد ... هو عيد الصفاء
الروحي ، والبراءة النفسية ... لا شعائر ولا مراسم
ولا أبهة جوفاء ...

فأمنت على قولي دون تردد ...
وشارفنا المعبد ، فألفينا ثلاثة شخوص يترامون أمام
الباب الخلفي ، حيث نساكن ...
تدانينا منهم ، فتوضحت سماتهم ... كانوا هم العبد « رخت »
والأمة « خنوت » ، وقى الأمس الوسيم « بنكاو » . فهم مهمت
ضائق الصدر :

لأنهم لا يدعوننا في سلام ...
فقال « نفرت » خافضة الصوت :
وما شأننا بهم ؟ ...

وأقبل « بنكار » رافع الرأس ، ثابت الخطو ، على حياه
يلوح لإشراق ... وحياني في لباقة ، وما أسرع أن أخذ بيد
« نفرت » وسأيرها يتحدث إليها ويتودد ...

واجتمعنا نحن الخمسة عند الباب ، وسمعت « خنوت »
تقول ، وهي تنظر بمجامع عينيها إلى « بنكار » و« نفرت » :
ما أبهى شبابهما ... لكانهما عودان أخضران من
القمح الناضج ينموان من أرومة واحدة ...

فابتسم « بنكار » قائلا :

سعيد أنا بقولك هذا يا « خنوت » ...

ولم يلبث أن اتجه إلى قائلا في تحجب :

أيها السيد العظيم « بتاح — حتب » ... نحن كما تعرف
في عيد الشباب ، وإن للشباب في عيده هذا حقوقا
مرعية ... وإني ليسعدني أن أتخير « نفرت » صاحبة

لى ، أقضى معها كما تخولنا تقاليد العيد يومى هذا ،
نستمع بمباهج المهرجان ، ونشارك الشباب من أترابنا
ما يهناون به من مرح وإيناس ...
وأدهشتنى جرأته ، فنظرت إليه لحظات لا أحير جوابا ،
ثم أدت بصرى إلى « نفرت » فوجدتها مسجلة الجفنين ،
أنفاسها تتلاحق ...

ولما استعدت جاشى ، قلت للشباب :
شكراً لك على دعوتك يا « بنسكاو » ... ولكن
« نفرت » ليست من أهل المدينة ... نحن من الغرباء ،
ولا عهد لنا بمثل هذا المهرجان يا بنى ...
فقال جهير الصوت :

لا يمنع هذا من اشتراك « نفرت » فى المهرجان ...
ستكون هى فى صحبى ، وسأكون لها خير راع

ورفيق ، ولن تلبث أن تألف مظاهر العيد ...

وباذرت « خنوت » تقول :

ما أسعدها فتاة تلك التي يتخيرها السيد « بنكاو »

اترافقه في التفرج بالعيد ... إنه من شبابنا المتفوق ،

ومكانته في المدينة مرموقة ...

فقال « بنكاو » الأمة « خنوت » ، وذراع « نفرت » في يده

يشدّ عليها ، كأنه يخشى أن تفلت منه :

أنت كبيرة القلب يا « خنوت » !

فأنبرت « خنوت » في حديث موصول ، كأنه فيض

لا ينضب ، تسبغ فيه على « نفرت » و « بنكاو » ألوان

الإطراء ، وتضرع إلى الإله « بتاح » أن يبارك تلك الصداقة ،

حتى تؤق أكلها طيباً ...

وثارت حفيظتي ، فاتجهت ببصري إلى العبد « رخت »

كانى ألوذ به ، فإذا هو صلب السحنة ، لا تصدر عنه
نأمة ، لو حسبته تمثالا من صوان لما كان فى ذلك من غلو
ولا إغراق ...

ونظر إلى « بنكاو » يقول :

ألا تسمح لى بمرافقتها يا عماء ؟

وكانت الزمر من الفتيان والفتيات يهرون بنا ونحن
وقوف ، فتلكا حولنا بعض منهم استرعت أنظارهم غرابة
هياتى أنا و « نفرت » ، ثم ضربوا علينا نطاقا ...

وأجبت « بنكاو » بقولى :

لن تكون « نفرت » سعيدة برؤية هذا المهرجان ...

وصاح فى لهجة وثوق واعتداد :

تيقن أنها ستسعد كل السعادة ...

وسمعت أحد الفتيان يقول :

اسألوا الفتاة لنبدى رأيا ...

وتسكشت « نفرت » باديا عليها الذعر ...

ومال عليها « بنكار » ، وقال لها في صوت المتحنن :

ألا ترغبن أن تصاحبينى يا « نفرت » ، لنجول معا

في مهرجان العيد ، وأطلعك على ما فيه من غرائب

وعجائب ؟ ...

فشلت هى لحظات معقودة اللسان ، وقد ازدادت من

انقباض ، ثم جمجت وشفتاها ترتجفان :

إنى خائفة !

فضحك « بنكار » ضحكة عامرة ، وقال فى صولة واقتدار :

لا خوف عليك وأنت معى !

وفى طرفة عين ، ألفيته يحمل « نفرت » بذراعيه

القويتين ، ويقفز بها متخطيا الجمع من حوله ، وقد ارتفعت

من كل صوب أصوات تهلل واستحسان ...
وشاهدت « بنكاو » يعدو بها ، وهى فى حضنه ، يلقها
بذراعيه ، وسرعان ما طواهما الزحام ...
تم ذلك فى لحظات متلاحقة ، لم تدع لى فرصة تدبير
وإعمال فكر ، فشهدت ما جرى جامد الأوصال لا أنبس ،
هم ألفتنى بغتة أنطلق ، وأنا أصبح مردداً :
اتركها أيها الفتى الجرىء ... اتركها بسلام ، وإلا
دقت لحبك ، وسحقت عظمك ...
وتعالت أصوات السـفـرية ، وواصلت عدوى ،
وأنا أتصاحج كأنى مخبول ...
وتكاثفت دونى الجموع ، تصدنى عن متابعة السير ،
وضاع من عيني شبح « نفرت » وصاحبها على الطريق ...
ووجدتني أتهالك على الأرض ، فسارع إلى بعض

السابلة ، ينهضوننى ، وينفضون الفبار عن ثوبى ... وتقدم
منى شيخ جعد البشرة ، سمح الطلعة ، وأخذ بذراعى بعيداً
عن زحمة الناس ، وقال لى فى رفق :

أيها الرجل الصالح ... ماذا بك ؟

— اختطف أحد الشباب ابنتى ، ومضى بها إلى
المهرجان ...

... وفيم غضبك ؟ دعمها وشأنهما ... لماذا تقف حجر
عثرة فى سبيل سعادتهما ؟ ... ثق أن الإله « بتاح »
يرعى هذا العيد ويباركه ، فلن يقع فيه ما يسوء ...
اترك الشباب الشباب ... ولتكن سعادتنا فى هذا
العيد أن يسعد أبناؤنا ...

فتوليت عنه شاكراً إياه ، وحشت خطاى نائياً عن
أعين الناس ، وفى نفسى شعور مهانة وخزى ...

كانت المنطقة الجرداء ملاذى ، دون أعرف لى فيها وجهة
سير ، وتضاربت الأفكار فى رأسى : أترانى أخطأت فى
تصرفى ؟ وكيف جمحت بى مشاعرى هذا الجوح ، فلم أستطع
لها ضبطا ؟ كيف سمحت لنفسى أن أتورط فيما جلب على
السخرية والاستهزاء ؟ أكان على بادية بدء أن أسمع من
طواغية ورضا لريبتى « نفرت » بمرافقة « بنكار » ، بجارة
المتقاليد القوم فى هذا العيد ؟...

وعادت جملة الشيخ الوقور ترن فى سمعى :
« اترك الشباب للشباب ... ولتكن سعادتنا فى هذا
العيد أن يسعد أبناؤنا ... »

أترى تجد « نفرت » سعادتها فى صحبة شاب مثل
« بنكار » ، هله نفسه غرور وعنجهية وخيلاء ؟ وماذا
من أمرى أنا الذى سويت نفسها ، وطهرت روحها ،

وجعلت منها قديسة تتسامى إلى أعلى مراتب الآلهة ...
وألهبت الأفكار رأسي ، وألفيتني فجأة أمام فجوة المقبرة ،
فلم أتردد في اقتحامها ، وتهاويت على الأرض ، وجعلت
أحدق في السقف المشقق ، وأنا أستعيد ما مر بي من
أحداث ، وأحسست في وجداني بمرارة ، وفي حلقى بغصة ،
وإذا أنا تعروني نوبة بكاء ، ويشتد بي نشيج ... وسرعان
ما خدرت أوصالي ، وامتلكني سبات ...
واستيقظت متفزعا ، قلقا على « نفرت » ، فزائلت
الخربة ، واتخذت إلى المعبد طريقى على عجل ...

وقفت بباب المعبد الخاني ، أرقب إياب « نفرت » ،
[وامتد بي الانتظار ، وتزايدت مخاوفي ...

وبينما الشمس تميل نحو الغرب ، والظلال تتطاول في سرعة ،
[وهواء الأصيل يلطف ويرق ، لمحت شبح « نفرت » في
حجرة « بنكاو » ، فتقدمت أستقباهما ، واسترعى نظري على
الفور أنها قد اكتست حلة العيد ...

وصاح بي « بنكاو » :

أيها السيد العظيم ... لم يكن لما توهمته أساس ...
تلك هي « نفرت » تعود إليك سالمة غانمة ... قضت
يومها في بهجة وانشراح ...

فهممت :

حسنا ... حسنا ...

وعدت إلى المعبد ، ومعى « نفرت » ، بعد أن ودعها
« بشكوا » قائلاً لها :

سألقاك صبح غد ... طاب ليلك ...

وفي الحجرة ، كانت فلول أضواء النهار توشك أن تهرب ،
وعيني تحديق إلى « نفرت » دون كلام ، فقالت لى خافنة الصوت :
أحانق أنت على ؟ ...

— كل ما يعنينى أن أطمئن إلى سلامتك ...

— إنى بخير ... فلا تشغل بالك ...

— هل استمتعت بيومك ؟ ...

فنظرت إلى فى برامة ، قائلة :

لا أكذبك القول ... كان يوماً طيباً ...

— كنت مخطئاً فى هواجسى إذن ! ...

— ٩٦ —

— لم يحدث شيء يسوءك ...

— ما رأيك في « بنكاو » ؟ ...

— رفيق مهذب ... نعم الرفيق ! ...

— ما دام هذا قولك ، فليّ أن أصدق ...

وكانت « نفرت » تتألق في ثوب كتاني إناصع ، وحول
خصرها نطاق مقصب ، وعلى جبهتها عصابة وردية ، ومن
جيدها تتدلى قلادة تحلى الصدر ... فقلت وأنا أتأملها :

قهى على كيف قضيت نهارك ؟ ... لا تخفى عني شيئاً ! ...

— سأقص عليك كل ما جرى ، لا أكتفك قليلاً

أو كثيراً ... أنت علمتني الصراحة ...

— تكلمى ...

— كنت أول الأمر ساخطة على « بنكاو » ، منكرة

عليه أن يقحمنى في المهرجان ... بيد أنه حاطنى

برعايته وحنانه ، وأكده لي أنه يعيدني إليك معززة
مكرمة ، وأنتك لن تغضب عليّ أو عليه... بل ستشكر له
أن توخى راحتي وإسعادي ...

— ثم ماذا بعد ؟ ...

— حملني إلى داره ، وأسلمني إلى أمه ، وهي كريمة
عطوف ، فتولت زيتي ، وعطرتني ، وجهزتي بجهاز
العيد ، وهو ما ترائي أردتيه ...

وصمتت هنيهة ، ثم قالت :

أخشى ألا تكون راضيا عن مظهرى ... أحق
ما أخشى ؟ ...

— أنت تعلمين رأيي في الزخرف والترف ...

— هذا زي العيد ، ولن ألتذه لي زيا عقب المهرجان ...

— أتى قصتك ...

— أصبنا غداءنا نحن الثلاثة ، وكان غداء جيد الطهو ،

سائغ الطعم ، وتحدث « بنكاو » وأمه إلى حديثاً
 أنيساً أزال وحشيتي ، ثم شرج في « بنكاو » إلى ساحة
 الممرجان ، والناس يعوجون فيها موجاً ، كأنهم دوامة
 هائلة ، ورأيت من المشاهد عجائب أثارت بين جنبي
 مشاعر لم يكن لي بها عهد ...

— ماذا رأيت يا « نفرت »؟ ...

— أشياء كثيرة ، من ألعاب ، ومهرجين ، وسحرة ،
 وثعابين ، وقرودة ... وسلال فاكهة ، وكومات
 أسماك ، وفطائر ساخنة ... إلى جرار تفيض بالشراب
 الحلو المذاق ... وغير ذلك كله ... ويا لمنظر النخيل
 الجميل ! ... ويا للأزاهير تفرش الأرض كأنها الذهبير ...
 ولقد شهدت في كل ناحية حلقة رقص ، حتى
 خيل إلى أن الدنيا من حولي كانت ترقص ...
 فنذرت إليها في شغف ، وقاطعتها قائلاً :

وأنت ... هل رقصت ؟ ...

... أخذ « بنكاو » بيدي ، واندفع بي في حلقة راقصة ،
ودضينا نرقص ونرقص ... فأكل ثم نرقص ...
ونشرب ثم نرقص ... والمزامير والطبول والدفوف
من حولنا تتناغم ... وأخيراً تعبنا ، فارتيمنا على
الأزاهير نستريح ، ووسدني « بنكاو » ذراعه ،
ولأطف خصلات شعري ...

... وماذا أيضاً يا بنية ؟

— طبع على جبيني قبلة !

فرايتني أتعمايح في هيجة ، وأنا ألوح بيدي :

صمتاً يا شقية ... كفى !

فأصابها ذعر ... ونظرت إليّ تتساءل ... ووجدتني
أثناءي عنها وأنتحي فاحية الطاق ، أعتصر رأسي بيدي ...
اقتربت مني « نفرت » في خطأ حذرة ، وهي تهمس :

أتظنني أسأت في شيء ؟ ...

فهممت ، وأنا أحاول أن أزيغ ببصري :

ليتك لم تصدقيني القول ! ...

— لماذا ؟ لماذا ؟ ...

— لا أدري يا « نفرت » ... أخشى أن أكون في

قولي هاذيا ! ...

— لا ... أنت لا تهذي ... إنك لا تقول إلا حقا ...

ولا تنطق إلا صوابا ... كلامك كله هداية وإرشاد ...

إن كنت تراني قد أخطأت في شيء ، فلا تسكتم

عني ... أرسم لي الطريق الذي يجب أن أسلكه ... إني

حواريّتك ... إني ابنتك ... أكان في تصرفي ما يريب ؟

— لقد شببت عن الطوق يا « نفرت » ... وأنت في

غنية عن النصيح ... افعل ما يوحيه إليك ضميرك ...

عليك نفسك ...

فتعلقت بهدري قائلة :

لا ... لا تتركني وشأني ... إذا شئت ألا ألق
« بنكاو » فرني أطمع ...

واندفعه تبكي ، وهي متشبثة بعنق ، أحر بكاء ...
وإذا قواها تخور ، وإذا هي تنهاري ، فانسكبت عليها أحملها ،
وسرت بها وثيلاً إلى حجرتها ، ثم مددتها على فراشها ،
« أنا أقول :

كان اليوم عصبياً عليك يا « نفرت » ... أهدئي ونأى ...

فقال مطابقة الجفنين :

أما زلت ناظراً مني ؟ ...

— ثقي أني لا أنقم منك أبداً ... إن قلبي عامر بالرضا

عنك على الدوام ...

فلاحت على وجهها ابتسامة ، وتحسرت شففتها

بكلمات لا تبين ...

واتخذت مكاناً عن كسب منها ، أتأملها وهي في ثيابها
الأنيقة ، تستقبل طائف الأحلام ...
لبثت عيناى لا تفارقان محيّاها ، وكان ضوء القنديل
الشحيح يضئ عليها سحرا خلابا ...
ودانيتها ، أربّت خصلات شعرها ...
ثم انحنيت على وجنتها أطبع قبلة حارة مديدة ...
وما فعلت حتى أدبرت عنها ، وأنا ألم شعشى ، قاصداً
حجرتي ، بيد أنى لم أطق فيها مكثا ، فخرجت فزعا إلى
الفضاء ، أضرب في الليل الداجي على غير هدى ،
ومشاعري تتأهب ، وأفكارى تصطرع ، وكل تصوراتى
مهوشة متداخلة ، كأن بي وافد الحمسى ! ...

ما أسوأها ليلة أمضيت أكثرها هائما على وجهي ،
وأويت في أخرياتها إلى فراش لم أظفر فيه بيقظة هادئة
ولا بنوم مريح ...

كان دليف ، « نفرت » يحاصرني ، أراها في ثوبها الأبيض
الناصح ، تتلأل عيناها حليها الزاهية ... لم تعد « نفرت »
تلك العاتقة الخريبة ذات المظهر الساذج الخشن ، فهي تتجلى
أمام ناظري اليوم حسناء فاتنة ...

مالي أجدها تثير في أعماقي أحاسيس كامنة ، تتوجس
نفسى خيفة منها ؟ ...
ماذا ؟ ...

أما زالت تقبّع في قرارة كياني البشري جذور من روح الشر ، وأنا الذي لم أدخر وسعاً في تهذيب وترويض ، حتى حسبت أني قد برئت من كل أثر للشر ، ومن كل سلطان له علي ؟ ...

لكأنني بهذه الأحاسيس البغيضة تتأهب لانبعاث جديد ! لا ، لن أسمح لها بأن تنمو نموها الذميم ... وما بال هذا الشيخ الأسود ، يتربص « بنفرت » يريد اختطافها ، يريد أن يمتأثر بها بين ذراعيه أبداً ؟ أيجسب أني تاركها له ينالها في سهولة ويسر ؟ ...

ما كنت أقدر أني أمقته كل هذا المقت ، وأنا الذي وقفت حياتي على التبشير بالمحبة والسماحة والمصفاة ... أخطيء « بنكاو » حقاً ؟ ... أشير هو حقاً ؟ ...

أم ... أنا المخطيء الشرير ؟ ...

وتهاطلت على التصورات والأفكار تستغرقني ،
ودارت حول الأطياف شتى ، بين مشرق أنيس وآخر
موحش كريحه ...

وصباحاً نهضت من فراشي موطننا عزمي على أمر ...
لأنه قرار حاسم لا رجعة فيه ...

تجهزت ببعض الزاد ، وحملت عكازي ، متجها إلى
حجرة « نفرت » ، فلم أجدها ، فتوخيت باب الخروج ،
فرايتها تتخايل في الضوء البهيم ، قامة الزينة والزخرف ...
لأنها ترتقب مقدمه ...

هي في انتظاره حتما ...

وشعرت بقلبي ينصهر بين أضالعي ، وعلت سحنتي
جهامة واكتئاب ...

وأحسنت « نفرت » بي ، فأسرعت خذ الدنا فحوني ، وقالت :

ما أبهج اليوم وما أطيبه ! ...

فقلت في صوت أجش ، ونظراتي زائغة :

نعم ، إنه ليوم طيب بهيج ، جدير أن يستمتع به

الشباب ! ...

فخاضت ابتسامتها ، وهي تتداني مني تتأملني :

ما بك يا أبي ؟ يبدو عليك الكد ... ألم تنعم

بنوم مريح ؟

... لقد جفاني النوم يا « نفرت » ! ...

وأمسكت عن القول ، وأنا أرمي بنظري في الأفق

البعيد ، ثم استأنفت قائلاً :

أصغى إليّ يا « نفرت » ، إنني في حاجة إلى رياضة

روحية ألزم بها نفسي ...

- ماذا فى الأمر؟ أوضّح ا...!
- سأغيب عنك مدة لا أعرف مقدارها ... أشعر بأنى فى حاجة إلى فترة أحاسب فيها وجدائقى ، وأحتكم إلى ضميرى ... سأزاول امتحانا نفسياً جديداً ...
- ففيم المحاسبة والاحتكام؟ ... وفيم الامتحان ؟ ...
- أقول لك صادقاً يا « نفرت » ... أنخشى على نفسى من نفسى ... يبدو أن نزعة الشر ما زالت قابضة فى أغوار كيانى ، وأن الحياة قد دبّت فى هذه النزعة من جديد ...
- كيف تتوهم أن فىك نزعة شر ، وأنت قد بلغت من الطهر والصفاء مرتبة تدنو من مراتب الآلهة ؟ فابتسمت فى تحسر ، وأجبت بقولى :

إن من تحسبينه قد دنا من مراتب الآلهة ، يحس

اليوم أن الأرض تميد تحت قدميه ميّدا ! ...

— لا تجحد فضلك يا من غدوت إلها معبودا ... وما ينبغي

للآلهة أن تخشى طوارق الأحداث ! ...

ووقفت برهة صامتة ، وهي تنظر قبالتها نظراً حالماً ،

وتكلمت في صوت متنخم :

يا له من مشهد رائع عظيم ... ذلك الذي شهدته

في المعبد أمس ...

— أذهبت إلى المعبد ؟ ...

فواصلت حديثها غير معنية بمسألتها فيه ، وهي على حالها

حالة النظرات :

كان الجمع زاخراً ، وكلهم من شباب القوم ، في

لبوس العيد ، والمعبد بأعمدته المتناثرة ، وحوائطه

الموشية بالنقوش ، يعبق بالبخور الزكى ، والكهنة
في طيالمهم يرتلون الأناشيد ، يسايرها إيقاع
موسيقى أخاذ ، وأصوات الجموع تردد المقاطع في
تهلل ، وعيوننا متعلقة بتمثال الإله العظيم
« بتاح » ... كنا نشهد :

أى « بتاح » ...

يا حافظ الأرض والسماء ...

يا واهب الخير والنماء ...

أنت مسدى للنعمة ...

أنت مولى الرحمة ...

إنك الكلمة الحاسمة ...

إنك الحقيقة الدائمة ...

تعاليت وتقدسست ...

إلهنا «بتاح» ...

والتفتت إليّ ، وابتهامة الغبطة تتألق على عيّاها ،

وهي تقول :

كنت أصلي وأرتل الأناشيد مع « بنسكاو » ،

وأنا أتمثلك حيالي ، قائما في تمثال الإله «بتاح» ...

كنت أنشد لك ، أنشد للإله الأعظم الذي أراه

نصب عيني ...

فهممت في نبرة حزن :

وهل أنا إله يا « نفرت » ؟ ...

— ولماذا تأتي أن تكونه ، والناس كلهم يرونك إلهًا ،

وأنا منذ نشأت لم أرك إلا ذلك الإله المرموق !

فهمست ناكس الرأس :

لست إلهًا يا « نفرت » ... أنا امرؤ خاطيء ...

... حاشا لك أن تكون خاطئاً ! ...

... كنت أحسب أني كما تزعمين ، ولكن تجلت لي
الحقيقة عند التجربة ... عرفت أني خاطيء لا ريب !
... كيف ذلك ؟ ...

... ما أفقرني إلى ابتهاج إلى الإله الحق ، نور الأزل ،
أستلهم منه طمأنينة اليقين ... الشكوك تراودني ،
والخيرة تنوشني ، ولا أتبين وجه الطريق ! ...
ووقفت أمامها أتوسمها ملياً ، كأني أبغى أن أتزود منها
بأكبر قدر مستطاع ، قبل أن يفصل بيننا الوداع ...
وهمست :

لقد بدأت رؤياك في الواحشية الخضراء تتحقق
يا ... نفرت ... هذا تأويل الرؤيا ... المدينة
العظيمة ذات الأبواب المبهجة توشاء أن تبذل لك ،

وأسوارها توشك أن تنقض عليك ، فتسلبني إياك ...

إني مرتحل ...

— إلى أين ؟ ...

— لا أدري ... وداعا يا « نفرت » ... وداعا ربما كان

بعده لقاء ...

وضربت بعكازتي أديم الأرض ، ودفعت بخطاي صوب

المنطقة الخالية ... على حين لمحت شبح « بنكاو » قادما من

المدينة ذات الظلال الخضراء ، فأمعنت في السير ، تحيط بي

وقدة الحر ، وأحس تحت قدمي صلابة الصخر ...

To: www.al-mostafa.com